# شعرية الخبر عند أبي حيان التوحيدي.
# The poetics of narrative in Abi hayyen Ettawhidi's Wrttings

**أ. سوالمية سميـــر**
**(جامعة 20 أوت 1955 –سكيكدة)**
Email : soualmia@hotmail.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 16 –2018 ص ص 553–572.

**الملخص**

*يعد الخبر أحد النصوص السردية المهيمنة على إبداعات التوحيدي، خاصة في كتابه: "الإمتاع والمؤانسة" ، لذا ارتأينا إعادة قراءة بعض أخبار التوحيدي قراءة شعرية، وتحديد مصوغاتها الأدبية، واستخراج القواعد الجمالية التي انبنى عليها النص التوحيدي.*

*فالخبر عنده من أبرز الخطابات التي اتّسمت بالشعرية، بحيث زاوج من خلاله بين الإمتاع والإفادة، بفضل الأخبار التي تمزج بين التخييل والواقع، في محاولة منه لإبراز الوظيفة الجمالية التي لا يصل إليها القارئ إلا بتدبر أسراره؛ لتحقق له الارتواء المعرفي.*

*لذا تطرح هذه الدراسة الإشكالية الآتية: إلى أي مدى استطاع الخبر السردي عند التوحيدي أن يحقق الشعرية؟ هذا ما سنجيب عنه في هذه الورقة البحثية، التي حاولنا من خلالها إبراز الوظيفة السردية التخييلية والتداولية، اللتان تحملان صفات معينة تسهم في جمالية الخطاب السردي التوحيدي، والتي لا تخرج في الغالب الأعم عن المقاصد الدينية والفكرية والهزلية.*

**الكلمات المفتاحية:** *الشعرية، السرد القديم، الخبر، التخييل.*

## *Abstract*

*The announcement is one of the narrative texts that dominate Tawhidi's creations, especially in his book "Emotionalism and Congregation". Therefore, we saw the rereading of some Tawhidi's announcements as a poetic reading, defining its literary formulations and extracting the aesthetic rules on which the Tawhidi's text was based.*

*The announcement for him is one of the most prominent discourses characterized by poeticism, so that it combines the enjoyment and benefit, thanks to the news that mixes the imagination and reality, in an attempt to highlight the aesthetic function, which is accessible to the reader only by the management of its secrets; Therefore, this study raises the following problem: To what extent was the narrative annoucment in Tawhidi's achieve poeticism? This is what we will answer in this paper, in which we tried to highlight the fictional and deliberative narrative function, which bear certain qualities that contribute to the aesthetic of Tawhidi's narrative discourse, which often does not emerge from the religious, intellectual and comical purposes.*

***Keywords :*** *poeticism, narratives, announcement, imagination.*

**مقدمة:**

إن الحديث عن شعرية الخبر عند التوحيدي يقودنا إلى الحديث عن الخصائص الأسلوبية لبنية النص السردي للأخبار القصصية التي يسوقها أبو حيان التوحيدي، وهذا سعيا منا لتجاوز المفاهيم الكلاسيكية المتمثلة أساسا في القصة أو الحكاية، محلّقين في فضاء أوسع تتمظهر من خلاله كيفيات انتظام الكلام وتلاحق متتالياته.

فالبحث في الشعرية يتصل عموما بإبراز الوظيفة الجمالية للنص الأدبي، أو بتعبير آخر : تحديد مصوغات أدبية، وشروطها الفنية والكيفية التي تجعل من رسالته اللغوية عملا فنيا ( ياكبسون، 1998، ص 24).

من هنا يتضح أن الشعرية المعاصرة تعنى باستخلاص الخصائص النوعية، ومعرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة النص الأدبي "وهو ما يميز عملها بوصفها مقاربة عميقة للأدب تفرز بنياته من داخله بطريقة مجردة وموضوعية، بحيث ينصب جهد الباحث على إبراز المقومات التي تجعل الكتابة أدبا أو الحكاية عملا سرديا يستحق أن يعامل باعتباره إبداعا جماليا متميزا وليس مجرد سرد عادي"(فضل، 2002، ص123).

فالشعرية هنا تتجلى في جملة القواعد والمبادئ الجمالية التي لا ترتبط بالشعر فحسب، بل تتعداه إلى الأدب كله شعرا ونثرا، وذلك بمراعاة قواعد وقوانين كل نوع.

أضف إلى ذلك فالشعرية: "تبحث في قوانين الخطاب الأدبي عبر إجرائياتها الخاصة، ومرجعها الأول والأخير هو الخطاب الأدبي نفسه..." (ناظم، 1994، ص09).

وعليه فالسرد أعم وأشمل؛ لكونه ظاهرة حكائية ماثلة في شتى مناحي الحياة الحية منها والجامدة، فالعين تقرأ سرد الجمادات، وتفك شفرة صمتها، والأذن تنصت للأصوات المسرودة، مقروءة كانت أم غير ذلك .

فكل شيء في هذا الوجود قصة أو حكاية، سعيدة كانت أم حزينة وما على الانسان إلاّ الانصياع وراء هذه السرود؛ لأنه هو ذاته حدث وحكاية، وفي هذا الصدد يقول عبد المالك مرتاض "وكما لا يستطيع المرء أن يعيش دون أن يأمل ولا أن ينام دون أن يحلم، فكذلك لا يستطيع أن يعيش دون أن يدرس، ويحكي، ويخرف، ويهذي، ويعبث ويهرج، وينكت ويسخر، ويبكي ويضحك، ولايبكي ويضحك ... كل هذه المظاهر سرود لحكايات أنجزتها اللغة وصّورها الأسلوب، وأبدعها الخيال، فالصمت حكاية، والبكاء حكاية، والصراخ حكاية، والحياة حكاية، جميلة سعيدة، والموت حكاية حزينة... "( مرتاض، 1997، ص 339) .

وإذا كان السرد خاصية إنسانية، فإن الحكاية ماهي إلاّ أحد أصنافه التي أنجزتها اللغة، وصورها الأسلوب، وأبدعها الخيال، فكل حركة يتحركها الإنسان، أو خطوة يخطوها، ماهي إلاّ حكاية –كما أنه مصطلح أدبي فني يتجلى في الحكي أو القص المباشر من قبل المؤلف أو الشخصية في الإنتاج الفني، يهدف إلى تصوير الظروف التفصيلية للأحداث والأزمات، ويعنى كذلك برواية أخبار تمّت بصلة للواقع أو لا تمّت، لذا فهو أسلوب في الكتابة تعرفه القصص والروايات والسير والمسرحيات .

كما تعد الحكاية نموا تدريجيا للخبر، فمجموعة الأخبار تتآلف فيما بينها وتتناسق لتشكل الحكاية، التي تتميز من الخبر بتعدد الأخبار وتنوع الشخصيات واتساع الزمن والفضاء، على غرار الخبر الذي يعنى بـ:"بساطة البنية حيث يمكن أن تختزل الحركة السردية غالبا في ثنائية رئيسية واحدة ؛ الطلب والاستجابة أو الطلب وعدم الاستجابة فعل ورد فعل بينهما رباط سببي أو تعاقبي"(ناظم، 1994، ص360).

فالخبر عند التوحيدي يعد من أبرز الخطابات التي جعلته يتفنن في رصد مختلف الموضوعات، وكذا تمرير خطابه إلى الوزير من جهة أخرى، لذا كان أحد الروافد المهمة

في تقديم معرفة موسوعية متنوعة، معبّرا في الوقت نفسه عن رؤية الكاتب وموقفه في المجتمع.

ولما كان الخبر" فنا من فنون القول"(القاضي، 1998، ص535)، أو جنسا سرديا بسيطا يزاوج بين" الإمتاع والإفادة ويتشكل في أنواع وأصناف مختلفة"(مشبال، 2010، ص09)، وفي بعده الفكري يعد مرجعا تاريخيا يحمل الكثير من الأنساق الثقافية والسيميائية التي تتشكل فيها الذخائر التناصية المتنوعة. فإن النادرة يمكن النظر إليها على أنها خبرا هزليا، والملحة خبرا طريفا، والخبر المتفرع إلى وحدات قصصية صغرى حكاية، على شاكلة الموضوعات العجائبية والدينية والفلسفية والعلمية، بوصفها أخبارا غريبة أو عجيبة أو دينية أو علمية أو فلسفية .

فالأخبار التي تمزج بين التخييل والواقع تهدف إلى تصوير الواقع بكل أشكاله وقيمه المختلفة، وهذا من خلال تقديم معرفة شاملة تعبر الإنسان وترصد مشكلاته الحقيقية، لذا نجد الخبر يحمل في طياته وظيفة تداولية نفعية وعملية تتحد مع وظيفته الجمالية أو تساندها وهي وظيفة" مغلّفة أو مقنّعة لا يصطدم بها القارئ، وإنما يتدبّر أسرارها بعناء في خلال تأمله للخبر" (القاضي، 1998، ص662).

ومن بين سمات الخبر الأدبي من زاوية خطابه السردي غلبة الاقتصاد في اللفظ على الأخبار، وفي هذا الصدد يقول محمد القاضي " نعتقد أن جنوح الخطاب في الأخبار إلى الاقتصاد إنما تولد من المنزلة المخصوصة التي يحظى بها فيها كلام الشخصيات" (القاضي، 1998، ص391). لكن من حيث المعنى نجده يتسع ليشمل العديد من المعاني والأغراض التي سكت عنها جاعلا القارئ الفرصة للبحث عن المتواري الذي يتناسب والوظيفة التداولية

يعد سعيد جبار من الباحثين الذين خاضوا في دراسة الخبر حيث يراه نوعا سرديا

بسيطا لم تكتمل بعد مكوناته لتشكل نسقا سرديا يرقى من خلاله إلى مستوى الأجناس السردية المكتملة، فمن ضمن مميزاته "الإيجاز" الذي يكون " محدودا في بنيته الحكائية والسردية، فنهايته تحيل على بدايته بطريقة مباشرة وسريعة، وهذا الإيجاز يجعله ملتبسا غامضا، غير مكتمل، فيكون الإيحاء هو السمة الغالبة عليه" ( جبار، 2006، ص17 ).

وعليه فالخبر نوع سردي، يتحدد بجملة من المكونات باعتباره نسقا نوعيا، وهذه المكونات هي :

- وحدة الحدث.
- ضيق الزمن ( غياب المؤشرات الدالة على التحول الزمني ).
- وحدة الفضاء ( غياب ملامح محددة لطبيعة الفضاء ).
- قلة الشخصيات وثباتها.
- هيمنة الخطاب المسرود.

كما ينبغي الإشارة هنا إلى علاقة الخبر بالحديث على اعتبار أن كليها يرسل خبرا متضمنا حدثا أو فعلا سرديا، فهما من جهة علاقتهما بالزمن، نجد أن الخبر مرتبط بزمن مضى وانتهى، في حين يكون الحديث مرهونا بالزمن الحاضر أي " أنه آني مباشر تجتمع عناصر الخطاب كلها في لحظة إنجازه : المرسل والرسالة (الحديث) والمرسل إليه فإذا خرج الحديث عن آنيته لحظة الحاضرآل إلى خبر مروي، ومن ثمّ فكل حديث ما هو إلا خبر مضى؛ ولذلك كان كل حديث خبرا من قبل، لذا ارتبط مفهوم الحديث بما هو جديد وقائم بالفعل، كما أن الحديث هو كلام صادر عن قائله مباشرة، أما الخبر فيتميز بنقله من الواحد إلى الآخر، وهما بهذا المعنى يقتربان بعض الشيء من مفهوم السرد والعرض ..." (جبار، 2004، ص 95).

فالمتأمل في نصوص أبي حيان التوحيدي يلحظ أن معظمها أخبار وأحاديث، فهو راو لأحاديث الجالس من طريق غير مباشر، بعد أن يكون قد أعلن عن حضوره المجلس كما في الإمتاع والمؤانسة، أين يعمد إلى تثبيت خطاب الخبر، بعد أن يغير صيغته المباشرة إلى صيغة غير مباشرة، فتكون الصيغة بذلك سببا في قلب الحديث إلى خبر .

وعليه فالخبر والحديث من الناحية السردية لا ينجزان إلاّ بواسطة صيغة ما انطلاقا من علاقة الصيغة بالكلام والتلفظ، إذ أن: " الصيغة السردية ارتبطت بإرسال شيء هو على مسافة من مرسله، هذه المسافة قد تكون زمانية، أي يخبر عن شيء انتهى وتمّ ، وقد تكون مسافة مكانية، إذ يخبر بشيء لايرتبط بقائله، وفي إطار هذه الصيغة السردية كان الحديث عن ( الملحمي) في المقابل نجد أن العرض يرتبط بشيء يتحقق على الأقل في زمن إرساله. فلا تكون مسافة بين المرسل والرسالة التي يوجهها، وفي هذا الإطار كان الحديث عن (الدرامي )"( جبار، 2004، ص94).

بهذا يكون الخبر داخلا في أجناس سردية أخرى، بل قد يكون نواة المحكيات جميعا، مثل: القصة والحكاية والسيرة؛ لأن هذه الأجناس القولية تتقاطع كلها في جنس أشمل من حيث الصيغة الإخبارية.

فالخبر ينضوي تحت مفهوم القص؛ لأنه يشكل أبسط الوحدات الحدثية الصغرى التي تتركب منها القصة، باعتبارها نصا مؤلفا من مجموعة أخبار في نص طويل واحد، كما هو الحال في كتاب " الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي، فالخبر إذن هو "كل حدث تميّز ببساطة فعله ووحدته، فلا يتفرع إلى تعدد الأفعال والأحداث وتنّوع الشخصيات، وقد يطول بعض الشيء إلاّ أنه يحتفظ بهذه الوحدة الحدثية ( جبار، 2004، ص99).

ونظرا لكون الخبر يرتكز أساسا على الحدث في منظومة سردية تقوم على الرصف، مستجلبة استخدام المنظومات الصغيرة في بنائية الحكاية، مما يعني أن اقتطاع خبر ما من سياقه، ورؤيته مجردا، قد يضر من تأويله؛ لأن مرتكز التأويل هو البناء أولا وآخرا، ومقصد التوجيه والتلقي.

لذا فتشكيل الخبر في الصيغة التي هو فيها، يدل على أن المرجع يعاد تشكيله وفق مقتضيات الشعرية التي فيها " يتحرر الراوي من قيد الدقة في النقل والإسناد، ويلجأ إلى ابتداع أحداث جديدة، أو إجراء تحوير في أخرى استجابة لأحوال الذين يروي لهم" ( عبد الله، 2000، ص219 ).

وعليه فالخبر ذو وظيفة تمثيلية؛ فهو يركب ويعيد التركيب، ويبدع ويعيد تأسيس الوقائع والأحداث والشخصيات.

ويتسع سبيل الخبر ويمتد في الزمن الثقافي المعاصر للتوحيدي الذي تعّوضت فيه بنى الأخبار التقليدية من إسناد مركب، ومتن مقيد بذلك الإسناد، لهّزة في المجالات التي ليس لها أب ارتباط بعلوم الدين، وهذا إما بتبسيط صور الإسناد، أو بشحن المتون بوقائع يصعب التأكد من صحة وقوعها بصورة دائمة، أو بتفعيل منظور الراوي / السارد من الخارج.

لقد عمد التوحيدي إلى تضمين السّرد بعدا إمتاعيا، خاصة في مؤلفه: " الإمتاع والمؤانسة"، فجاءت هذه الوظيفه الإمتاعية معلنة من بداية التلقي الخبري : " تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس" ( التوحيدي،2007، ص27)؛ لتتابع بعدها مقاصد السارد التأثيرية بعد تهيئة المتلقي، والإيحاء فيما بعد هذه الوظيفة: " قال ابن السماك للرشيد. وقد عجب من رقته وحسن إصاخته لموعظته، وبليغ قبوله لقوله ... "( التوحيدي، 2007، ص29 ).

وهكذا تحقق للمتلقي الارتواء المعرفي، فالاستمتاع، فاتخاذ موقف تحت ضغط المؤثر الخبري، وهو الشيء الذي جعل السارد يحقق بعدا إمتاعا معرفيا.

يقول التوحيدي: "عبد الملك بن مروان قال لبعض جلسائه: قد قضيت الوطر من كّل شيء إلاّ من محادثة الإخوان في الليالي الّزهر، علي التّلال العفر" (التوحيدي، 2007، ص 33) .

ويقول أيضا : " عمر بن عبد العزيز قال: والله إنّي لأشتري [ ليلة من ليالي] عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين " (التوحيدي، 2007، ص18).

ويقول أيضا :" قال سليمان بن عبد الملك ... وما أنا اليوم [إلى شيء] أحوج مني إلى جليس يضع عني مؤونة التحفّظ ويحدّثني بما لا يمجّه السّمع، ويطرب إليه القلب " (التوحيدي، 2007، ص34).

من هنا يتضح أن أخبار التوحيدي تحمل بعدا إبداعيا، انتقى من خلاله أصحاب الأخبار من الخلفاء، الشيء الذي أّدى بابن سعدان الوزير يجعل من نفسه محدثا محفزا ومحرضا لاتخاذ موقف على شاكلة ابن السّماك مع الرشيد.

لقد ارتكز الخبر في نظام الدوال على مستوى ساحات الإخبار، مما يفسح المجال للرمز أن يجعل من المعنى يحمل معنى فنيا جماليا، فالشعرية لا تكمن في مضمون الخبر، بل في تقنية تقديمه وتوجيهه ليؤدي وظيفته الجمالية، لذا كان حضور الراوي الداخلي والخارجي ممثلا في شخصية "التوحيدي" ليشكل سياقات الخبر، في الوقت الذي يتصرف في بنيته الداخلية "المتن" بحسب المستهدفات الوظيفية.

"قال بعض السلف: الخيل تجري في المروج على أعراقها، وفي الحلبة على جدود أربابها، وفي الطلب على إقبال فرسانها، وفي الهزيمة على آجالهم" (التوحيدي، 1999،

ص72) .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : "الخيل تجري بأحسابها، فإذا كان يوم الرهان جرت بجدود أربابها " ( التوحيدي، 1999، ص21).

فهذان الخبران يعكسان الهدف الأدبي، إذ يمثلان التقليد الإخباري الذي من شأنه أن يثبت الدلالة، وينّوع من قوالب التشكيل اللغوي.

"يشكل هذا التأسيس مقدمة تشرع الجانب التقني للراوي في الإخبار، الذي يقابل عمليا مفهوم التدخل السردي المحايد ظاهريا، والموجه في التعليق والتفسير والتمهيد والتوضيح، في إهمال للسند واضح، إلى الحد الذي تتبادل فيه شخصيات عدة خبرا واحدا" (التوحيدي، 1985، ص259).

لقد اتصلت التدخلات الموجهة بالموقف الذي يتخذه الراوي " التوحيدي" من الحدث في الخبر أو من راو الخبر، ويعمد إلى توجيه الخبر التوجيه الذي من شأنه أن يحقق الوظيفة الجمالية، وهذا من خلال الاختصار والحذف والتعليق والتفسير. "لما قتل عبيد الله بن زياد –لعنه الله– الحسين بن علي عليه السلام، قال أعرابي: انظروا إلى ابن دعيها كيف قتل ابن نبيّها" ( التوحيدي، 1999، ص87).

ونتيجة لتداخل الخبر والحدث والشخصية، اتجهت التقنية إلى نقد صاحب الخبر ذاته، أو الشخصيات الداخلة فيه، وهذا إما برد التقدير إلى بعضها، أو منتقدة بعضها الآخر.

"قال المبرد: قال المازني: قال الأصمعي: رأيت الخليل يأخذ كتب أبي حنيفة فينظر فيها، فقلت له: كيف تراه؟ فقال: أراه يأخذ الحق فيمسحه" (التوحيدي، 1999، ص88).

قال التوحيدي:" قد دلّ التوحيدي بهذا على اختلاله؛ لأن الفقه ليس من شأنه، وأبو

حنيفة يجّل عن مثل هذه الحال" (التوحيدي، 1999، ص24).

وهكذا تبقى الثوابت النظرية للسرد عند التوحيدي موجهة أساسا لتقنيات الخبر، وخاصة فيما تعلق بالحذف والاختصار، فبالإضافة إلى انتظامهما في السرد عامة، يبقى الجديد فيهما هو الصبغة الجمالية التي تمنح تفاصيل التحول بعدا جديدا يكمن في الكفاية السردية للخبر، وقدرتها على التكيف داخل المحيط السردي العام، والتكيف بين المبنى الأسلوبي في بنية ما بعد الحذف والاختصار والمرجعية.(ابن قتيبة، 1994، ص59).

وعليه فالخبر تقنيا قد حقّق معادلة الوقوف على مسافة واحدة من وجهة نظر الّراوي، والمبنى الخبري، والمتلقي الّذي يتلقى إشارات مباشرة أو ضمنية تحّضه على التّلقي أو تحبّ به لسماع الخبر الّذي قد يؤّدي وظيفة مفترضة.

لذا كان لزاما علينا قراءة بعض أخبار التوحيدي؛ "رغبة في الكشف عن سماتها الجمالية، وسعيا إلى تحديد أدبيتها"( مشبال، 2010، ص 78-83).

كما يمثّل الخبر عند التّوحيدي أحد الخطابات التي تحاول الجمع بين الوظيفة الّسردية التّخييلية والوظيفة التّداولية، فبعض الأخبار تحمل سمات جمالية وتخييلية والّتي تسهم في جمالية الخطاب التّوحيدي، الذي لا يخرج في الغالب عن المقاصد الّدينية والفكرية والهزلية، وهي أخبار تتّسم بالغرابة، والهزل، وأخرى تاريخية :

## أ/ الغرابة:

فالغرابة تعدّ أهم مولّدات ومنابع السّرد عند التّوحيدي، فوظيفتها الجمالية تكمن في قدرة الذّهن على التّأمل والاستمتاع بالعالم الغريب بعيدا عن الحقيقة والواقع، وتنقسم الغرابة في أخبار التّوحيدي إلى قسمين:غرابة طبيعية واقعية، وأخرى مفارقة للواقع لا يتقبلها العقل، بحيث لن تجد لها مسوغا عقليا.

فالقيمة الأخلاقية التي تعتمد على سمة الغرابة والّتي " تمثل أحد أهم عناصر التّخييل السّردي، نظرا لما تثيره من إعجاب يسر ويمتع" (أرسطو، 1986، ص196)، هذه السمة تكون مقبولة لدى القارئ لما ترتبط بالنص الديني، وبالقيّم الأخلاقية، لذا فوظيفة الخبر عند التوحيدي تقوم على تفسير الأفكار التي تستخدم أدوات التّخييل ومنها الغرابة، كما هو الحال في الخبر الآتي:" قال أبو هريرة: كان جريج يتعبد في صومعته، فأتت أمه فقالت: يا جريج، أنا أمك كلّمني؛ فقال: اللّهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت ثم أتت ثانية فقالت: ياجريج، كلّمني، فصادفته يصلي فقال: اللّهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، ثم جاءته فصادفته يصلّي، فقالت: اللهم إن هذا ابني قد عقّني فلم يكلّمني فلا تمته حتى تريه المومسات، ولو دعت عليه أن يفتن لفتن. قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره، فخرجت امرأة من القرية، فوقع عليها الرّاعي، فحملت فولدت غلاما، فقيل لها: ممن هذا؟ فقالت: من صاحب هذه الصّومعة، فأقبل النّاس إليه بفؤوسهم ومساحيهم فبصروا به، فصادفوه يصلّي، فلم يكلّمهم، فأخذوا يهدمون ديره، فنزل وتبسّم ومسح رأس الصبي، وقال: من أبوك؟ فقال: أبي راعي الضأن. فلما سمع القوم ذلك راعهم، وعجبوا. وقالو: نحن نبني لك ما هدّمنا لك بالذّهب والفضّة. قال: لا أعيدوها كما كانت ترابا؛ ثم عاد" ( التوحيدي، 2007، ص 72، 73).

فهذا الخبر يمكن عده ضربا خياليا، على أساس أن الصّبي لا يمكن أن يتكلّم ويتعّرف على أبيه الحقيقي، كما يمكن النظر إليه من زاوية أخرى أخلاقية، فالمولى تعالى يرمي باستنطاقه الصّبي إلى الكشف عن الحقيقة، ونصرة المظلوم. فالغرابة تختفي خلف تصديق الخبر والانجذاب إلى القدرة الإلهيّة التي تنصر الحق وتظهره.

كما يمكن عد هذا الخبر أيضا من باب التناص الديني مع الحديث النبوي الشريف، فالتوحيدي استحضر هذا الحديث النبوي ليوطن نفس القارئ لتقبل البيان، هذا من جهة ومن جهة أخرى حتى ينوع في أساليب التشويق والإثارة لما يحمله هذا الخبر من سحر البيان.

هكذا تتجلّى عظمة الخالق في هذا الخبر السّردي، لكن ذلك لا ينفي وجود الوظيفة التّخييليّة السّردية، فالخبر من النّاحية الشّكلية يبدو وكأنّه ينقسم إلى وحدتين سرديتين منفصلتين في ظاهر الخبر، لكنّهما في الأساس مكّملان لبعضهما البعض، يفسران الحدث ويرسمان الشّخصية .المشهد الأول من الخبر يصّور تعبّد جريج في صومعته، لدرجة امتناعه عن إجابة أّمه، في حين يحكي المشهد الثّاني عن قصّة المرأة التي حملت من راع، فالمشهدان يلتقيان في حدث واحد، وهو اتّهام المرأة لجريج بأنّه الشّخص الذي حملت منه .

فالسّارد هنا قد رسم شخصيته الرئيسيّة في هذا الخبر بسمات الزّهد والإيمان، فجميع المواقف التي تعّرض لها جريج من تعبد ثبت ذلك، فحتّى لما هدّمت صومعته التي كان يتعبّد فيها لم يغضب ولم ينزجر، بل حافظ على هدوئه وسكينته، فرد فعل الشخصية يتماهى مع طبيعة الحدث، فهدم الدّير يحتّم عليه إيجاد مخرج لاسترجاع حقّه، الأمر الذي دفع بجريج إلى مخاطبة الصّبي أمام النّاس قصد إظهار الحق .

فالخطاب تحّول في هذا الخبر من التّواصل مع الله بالعبادة، إلى التّواصل مع النّاس

من خلال معجزة كلام الصّبي، وإخبارهم عن أبيه الحقيقي، وكأنّ الظّلم الذي تعرّض له جريج قابله فعل عجائبي أثار القوم وأفزعهم، فلما قرروا إعادة بناء الدّير بالذّهب والفضة كان ذلك نتاج اعتقادهم أن جريجا شخص مبارك من الله.

فالسّارد في هذا الخبر يسعى إلى إثبات عظمة الخالق، وذلك من خلال تكثيف الأحداث، وجعل المشهد الثاّني من الخبر تمثيلا للعقاب الذي نال الشّخصية، وبعدها ظهور الحق الذي يبرر سلوك جريج وإيمانه القوي، هذا الإيمان جعله يتبسم في نهاية الخبر لماّ استطاع إثبات براءته في النهاية، وكأن الخبر تحّول بحدثه الغريب و"بخياله المعقلن" (أبو ديب، 1996، ص210)، إلى درس في حكمة الخالق، وهي إثبات الحقيقة ونصرة المظلوم.

من هذا الخبر نجد أن الغرابة تعد أحد مكّونات بلاغة جنس الخبر، حيث تمنحه التّشويق والطّاقة التّصويرية والإسهاب في الحكي وتلاحق الأوصاف وتسهم في بناء الحدث، لدرجة أن يصبح الخبر الغريب في ضوئها حجّة على المقولات الفكرية التي يؤّسسها التّوحيدي عبر السّرد .

ففي الخبر الغريب لـ"جريج والغلام" نجد التّوحيدي يستثمر الخطاب الدّيني، على أساس أنه يسمح بتقبّل أشكال النصوص ذات السّمة العجائبية التي تعمل على إيصال بعض القيّم ولو تعارضت مع قانون الطّبيعة، فلّما نتلقى النص الدّيني فإن معايير الغرابة تتلاشى، ويحل محلّها التّصديق وأخذ العبر، وتفسير الحدث تفسيرا روحيا ينسجم مع الجو العام للتّواصل الدّيني الذي يشكّل سلطة ينبغي الإيمان بها.

إن تصديق التوحيدي للخبر الغريب ينسجم والبعد الديني أين يقع العقاب، وتنكشف الحقائق وتتعّمق المفارقات، فهو عالم أشبه بالحلم، تحتّم على المخلوق الإيمان بها وتقبلها دون اعتراض، وإذا كان تودوروف يرى أن الغرابة في السّرد لا تتم

إلا إذا كان لها أصل في الواقع، أو تجربة سابقة تؤول إليها وتماثلها ( زيد، 2009، ص43)،فإن مرجع هذا الخبر هو قصّة مريم البتول، حيث كلّم الله نبيّه عيسى وهو صبي.

فهذا الحدث التاريخي الهام يحيلنا إلىحقة تاريخيّة ودينية مألوفة ومعروفة، لذا كان امتداده في التّراث الديني هي التي تسمح بتصديقه وتلقيه في سياقه الخاص.

**التناص:**

لقد أورد التوحيدي العديد من الأخبار القائمة على الحكي الواقعي، أين تنتفي سمة الغرابة، ويحل محلّها الواقع وقوانين الطّبيعة، كما أنّه يحكي حدثا معينا ويقدّم عبرة ما، فالخبر التاريخي من شأنه أن يقوم بوظيفة دينية أخلاقيّة كما سنرى، لذا نجد التوحيدي يرتكز على الإيمان واستجابته لدعوات المؤمن الصّادق، كما أنه في الآن نفسه يثّمن القيّم الأخلاقية الحميدة، من ذلك الخبر الآتي:

في الليلة السابع والعشرين يحكي لنا التوحيدي قصة سفره مع جماعة من الصّوفيين لآداء مناسك الحج، وبينما هم في الطريق انتابهم إعياء وجوع كبيرين، فاستراحوا قليلا، وأرادوا طهي الطّعام، لكنّهم لم يجدوا الحراق لإشعال النّار وبقوا على هذه الحالة ثلاثة أيّام، وفي اليوم الثّالث قال للتّوحيدي لرفاقه:" إذا عثرنا بحراق وظفرنا بفتيلة، فوجدوا خرقة ملفوفة فيها حراق، فهلّلوا وكّبروا، ورفعوا أصواتهم." (التوحيدي، 2007، ص 318).

فهذا الخبر التّاريخي يعد أحد النّماذج السّردية التي يعد التّوحيدي فيها أحد أبطالها الحقيقيين، قد شارك في الحدث بلعتباره شخصية سردية لها أبعادها التّخيلية والعملية، حيث يتوخّى حمل رسالة أخلاقية يكشف عنها تفسير الخبر.

يبدأ الخبر بتقديم حقيقة تاريخية وهو تحديد موعد السّفر للحج، هذا الحدث شارك

فيه السّارد باعتباره شخصية مركزية، يبدأ القص بتوازن يتمثل في ( أخذ قسطا من الراحة وطهي الطّعام)، بعدها يحدث اللا توازن المتمثل في ( عدم العثور على الحراق)، لتختتم القصّة في النهاية بالعثور على الحراق وأخذ العبرة من الواقعة.

ومع هذا فالتّوحيدي غاص في تفاصيل الرّحلة التي تهدف للاعتراف بفضل الله، فالعبرة التي يثيرها هذا الصّ تعد النّواة الأولى التي يبنى من أجلها، وفي ذلك يقول التّوحيدي:" وليس أحد من خلق الله يجحد هذا القول، وينكر هذا الفضل، ويرجع إلى دين وثيق أو واه"(التوحيدي،2007، ص319).

فهذا الخبر يهدف إلى تثبيت فكرة دينية معينه، وهي فكرة "الاتّفاق"، لذا كان هذا الخبر صادقا ملتزما بالمرجعية الواقعية التّاريخية، فرغم وصف السّارد الظروف المتباينة للسّفر من ضيق وهم، ثم انفراج يعقبه سرور بعد حصول الشّخصيات على الحراق ليوقدوا به النّار، هنا تظهر الحقيقة الربّانية المطلقة التي بني الخبر لأجلها.

فالخبر قد بني على مقصد ديني واضح يتجلّى في الدّفاع عن عظمة الخالق، وإظهار رحمته، لذا كان المقصد الدّيني أحد دوافع السّرد عند التّوحيدي الذي يدعو إلى ضرورة التّأمل في دلائل الإعجاز.

إن تضمين أخبار التوحيدي قيّما أخلاقية لا يتوقف عند هذا الحد فحسب، فهناك العديد من الأخبار التيتحاول الكشف عن هذه القيّم، من ذلك إصلاح السّلوك وتعديل الأخلاق، وذلك بحمل الوزير على نهج السلوكيات الحميدة والالتزام بالقيّم الأخلاقيّة .

فمما يرويه التّوحيدي عن أبي الحسن علي بن هارون الزنّجاني ّ أن مجوسيّا ويهوديا سافرا معا، وكان هذا الأخير يمشي مترجّلا بلا زاد ولا متاع، أما المجوسي فكان يمتطي راحلته عليها زاده، وفي الطريق سأل اليهودي المجوسي عن دينه فقال:" أعتقد أنّ في

هذه السّماء إلها هو إله بني إسرائيل، وأنا أعبده وأقدّسه وأضرع إليه، وأطلب فضل ما عنده من الرّزق الواسع والعمر الطّويل، مع صحّة البدن ، والسّلامة من كلّ آفة والنّصرة على عدوي، وأسأله الخير لنفسي ولمن يوافقني في ديني ومذهبي، فلا أعبأ بمن يخالفني، بل أعتقد أن من يخالفني دمه لي يحل، وحرام علي نصرته والرحمة به..." (التوحيدي،2007، ص33).

لكن لما سأل اليهودي المجوسي عن عقيدته أجابه قائلا:" أما عقيدتي ورأيي فهو أنّي أريد الخير لنفسي وأبناء جنسي، ولا أريد لأحد من عباد الله سوءا ولا أتمنى له ضرا، لا لموافقي، ولا لمخالفي"(التوحيدي،2007، ص34) ، بعدها قال اليهودي مخاطبا المجوسي:" لست أراك تنصر مذهبك وتحقق رأيك... لأني من أبناء جنسك، وبشر مثلك، وتراني أمشي جائعا نصبا مجهودا، وأنت راكب وادع، مرفه شبعان"(التوحيدي،2007، ص320). حينها أطعم المجوسي اليهودي وأشبعه وأركبه خلفه، ومشى ساعة يحدثّه، ولما أدرك اليهودي أن المجوسّي قد أنهكه التعب، تخلّى عنه، وقال له:" ألم أخبّرك عن مذهبي وخبّرتني عن مذهبك، ونصرته، وحقّقته؟ فأنا أريد أيضا أن أحقّق مذهبي، وأنصر رأيي واعتقادي، وجعل يحّرك البغلة، والمجوسي يقفوه على ظلع وينادي: قف يا هذا واحملني، ولا تتركني في هذا الموضع فيأكلني السّبع وأموت ضياعا، وارحمني كما رحمتك"(التوحيدي،2007، ص320).

فاليهودي امتنع عن رحمة هذا المجوسي الذي دعا عليه أن يعاقبه الله على فعلته تلك، وفعلا استجاب الله لدعائه، حيث رمت البغلة بتلك اليهودّي، ولما وصل المجوسي بغلته ركبها ومضى في سبيله سائلا اليهودي عن سبب عدم اتّعاضه، فأجابه قائلا:" اعتقاد نشأت عليه، ومذهب تربيت به، وصار مألوفا معتادا، كالجبلة بطول الدأب فيه واستعمال أبنيته، اقتداء بالآباء والأجداد والمعلمين من أهل ديني ومن أهل مذهبي، وقد صار كالأس الثابت، والأصل النّابت؛ ويصعب ما هذا وصفه أن يترك

ويرفض ويزال. فرحمه المجوسي، وحمله معه حتى وافى المدينة، وسلّمه إلى أوليائه محطما موجعا، وحدّث الناس بحديثه وقصته فكانوا يتعجّبون من شأنهما زمانا طويلا" (التوحيدي،2007، ص321).

من خلال هذا الخبر يتبين أن موقف المجوسي تتجلّى فيه الرحمة والإحسان، فهو لم يعامل بالمثل، بل قابل الشّر بالإحسان، أو بتعبير آخر قابل الغدر بالوفاء، فأصبح هذا السّلوك مثالا يحتذى به.

لقد صاغ التوحيدي هذا الخبر منطلقا من فكرة "الاتفاق"، فهو في بداية الخبر يرسم صورة اليهودي وهو في حالة مثيرة للشفقة، في حين الآخر المجوسي كان راكبا بغلته مرفها، هذه الصورة استغلها اليهودي ليثير عاطفة الشفقة لدى المجوسي، وهنا يبدأ الصراع الديني والمذهبي بين الشخصيتين، فاليهودي يدعو لعدم الرحمة بالآخر المخالف لعقيدته، في حين نجد المجوسي يحب الخير لكل البشر مهما كانت مذاهبهم ومعتقداتهم .

فاليهودي من خلال استعطافه للمجوسي استطاع أن يوقعه في الخطأ؛ حتى يستطيع إنجاح خطته، فهو لما هرب بالبغلة علل ذلك اعتقاده وهو الغدر، بينما المجوسي لجأ إلى الله ليحقّق له غايته، وكأنّ التّوحيدي ينسج هذا الخبر على مبدأ التوازي بين فكرة القول والعمل التي تحكم نسيج النّص السّردي. فاليهودي انتصر لفكرته واعتقاده، على نحو ما امتثل المجوسّي لرأيه وتصّوره، مما جعل الخبر أكثر انسجاما وتوافقا.

وهكذا يتزاوج المتخيّل والحقيقي في الخبر، فالسّرد استطاع من خلال تقنية الحوار والسؤال والجواب في الكشف عن الوجه الحقيقي لليهودي، وهو محاولة الغدر بالمجوسي، لكن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فالخبر هنا قد دافع عن الوفاء والإخلاص وعظمة الخالق، وكأنّ التّوحيدي من خلال هذا الخبر يسعى لتمرير غاية أخلاقية إلى الحاكم عبر السّرد.

**خاتمة:**

وفي الأخير يمكن القول إنّ التوحيدي استطاع بحق من خلال أخباره المبثوثة في مختلف مؤلفاته أن يحقق قدرا كبيرا من الشعرية والجمالية، بحيث أسر القارئ جاعلا إياه يستمتع بقراءته لمختلف أخباره السردية.

-فقد كانت الغرابة —التي اتسمت بالتخييل- أحد أهم منابع السرد عنده، والتي حاول التوحيدي من خلالها أن يحقق الوظيفة الإمتاعية بجعل القارئ يحلق في فضاء واسع بعيدا عن الواقع، بكما هو الحال في حديث جريج، الذي يعدّ من أبرز الروافد الخبرية التي جمعت بين الوظيفة الدينية، والوظيفة الإخبارية.

-كما كان للتناص حضور قوي في أخبار التوحيدي، خاصة التناص التاريخي الذي أحالنا إلى العديد من الأخبار التاريخية، خاصة في خبر رحلته للحج مع بعض المتصوفة التي بنيت على فكرة"الاتفاق"، فقد غاص في تفاصيل الرحلة في قالب لغوي جميل، مبرزا القيمة الأخلاقية التي بني عليها الخبر، وهي إصلاح السلوك وتعديل الأخلاق.

-وفي الخبر الذي أورده التوحيدي عن المجوسي واليهودي يحيلنا إلى قيمة أخلاقية وجب التحلي بها وهي قيمة "الوفاء وعدم الغدر"، فاليهودي رغم غدره بالمجوسي وإيقاعه في الخطأ، إلا أن هذا الأخير لم يجازه بالمثل، بل لجأ إلى الله ليحقق مراده، وفي هذا رسالة من التوحيدي يدعو من خلالها إلى تقويم سلوك الفرد عبر تقنية السرد.

## قائمة المصادر والمراجع:

**المصادر:**

1- التوحيدي، أبو حيان. (2007)، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

2- التوحيدي، أبو حيان. ( 1999)، البصائر والذخائر، تح: وداد القاضي، ج1، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان.

3- التوحيدي، أبو حيان. (1985 )، رسائل أبي حيان التوحيدي، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دار طلاس، دمشق، سوريا.

**المراجع العربية والمترجمة:**

4- أرسطو، (1986) فن الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ط2، دار الرشيد، بغداد.

5- جبار، سعيد. (2006)، التوالد السردي، قراءة في بعض أنساق النص التراثي، ط1، دار جذور للنشر، الرباط، المغرب.

6- جبار، سعيد. (2004)، الخبر في السرد العربي، الثوابت والمتغيرات، ط4، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب.

7- زيد، إبراهيم عبد القادر. (2009 )، السرد في التراث العربي،كتابات أبي حيان نموذجا، ط1، عين للدرسات والبحوث الإنسانية والاجتماية، مصر.

8- عبد الله، إبراهيم. (2000 )، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان. 9- فضل، صلاح. ( 2002)، تحليل شعرية السرد، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر.

10- القاضي، محمد. (1998)، الخبر في الأدب العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

11- ابن قتيبة، عبد الله مسلم. (1994)، عيون الأخبار، تحقيق: محمد الإسكندراني، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

12- مرتاض، عبد الملك. (1997)، نظرية الرواية، ط1 ،بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت.

13-مشبال، محمد. (2010)، البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ط1، كلية الآداب، تطوان، المغرب.

14- ناظم، حسن. (1994)، مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنه في الأصول والمنهج والمفاهيم، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

15- ياكبسون، رومان. (1988 )، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، ط1،دار توبقال، الرباط، المغرب.

**المجلات والدوريات:**

16- أبو ديب، كمال. ( 1996)، المجلسيات والمقامات والأدب العجائبي، مجلة فصول، مج14، ج2، عدد4.

17- مشبال هشام. ( 2010) ، فصول وقراءات النثر القديم بين النقد الأدبي والنقد الثقافي: أدب أبي حيان التوحيدي نموذجا، مجلة فصول، ع 78.